كليوباترا بين الأدبين الغربي والعربي
- دراسة في الأدب المقارن –

الدكتور صبحي ناصر حسين*

مقدمة:

لم يتَح لموضوع من الموضوعات الأدبية التاريخية بأن يلقى رواجاً في الادب مثل ما لقيه موضوع (كليوباترا) ، خصوصاً في الآداب الغربية ، ذلك لأن الاحداث التاريخية التي تتضمنها غنية بمعانيها ، غريبة في موضوعاتها ، كما أن هذه الموضوعات دخلت الأدب على يد عباقرة ، بذلك اصبحت تلك الموضوعات افكاراً عامة اجتماعية وسياسية وفلسفية ، اضافةً الى الاطار الادبي الذي كان أساساً غالباً ، وربما اكتسبت طابعاً اسطورياً للتعبير عن فلسفات مختلفة ، أضحت بعد ذلك منفذاً لتيارات فنية وفكرية عالمية.

إضافةً الى أن الغرابة في موضوعها تقترب من القصص الخيالية في وقائعها. فمن مظاهر الأبهة والجمال في الأعياد والمآدب، الى سيطرة العواطف وسلطان الحب الجارف، تقوم المآسي التاريخية والوقائع الحربية ذات الأثر الخطير، ثم تنهار بها الممالك، وتتحطم عليها آمال الجبين.

ووراء كل هذا، شخصية فذة قوية هي (كليوباترا) التي جمعت الى جلال مكانها، وثقافتها الواسعة، وذكائها النادر، صفات الانوثة الكاملة. عاشت حياةً مليئة بالمجد والمتعة واللذة والانتصار(١). حتى اذا رأت كل هذا يتراجع ويتهاوى، لم تتهيب من الموت، فأنهت حياتها، فكأنما انتصرت بذلك على أعدائها بموتها، مثلما انتصرت في حياتها على الاباطرة.

ولكي ندخل الى معالم تلك الشخصية، لابد أن نعرض موجزاً للأحداث التاريخية التي دارت في اطارها معظم الاعمال الأدبية في الغرب والشرق.

تدور الحوادث بعد معركة (اكتيوم) حيث نزلت جيوش (اكتافيوس) وقابلتها جيوش (انطونيو) ، ولقد امتنع المصريون عن مساعدته ، انتصر في اليوم الاول، وحين جاء المساء، اوقف (انطونيو) المعركة ، التي كان عليه أن يستأنفها ، إذ ذهب الى (كليوباترا) وقضى ليلته ، ولم يفكر في امر المعركة في اليوم التالي . فدارت عليه الدوائر ، ففر مدحوراً ثم بلغه ان (كليوباترا) قد انتحرت حزناً عليه، وكانت هذه مكيدة ، فطعن (انطونيو) نفسه ، وادركته (كليوباترا) في النزع الاخير، وآثرت الاّ تقع أسيرة بيد (اكتافيوس) ، فأعطاها الكاهن حيةً لدغتها فماتت.(٢)

وهناك روايات اخرى حول علاقتها (بانطونيو)، نوجز بعضها، في أن (كليوباترا) لما أحست بالمكايد من حولها ، للاطاحة بها عن عرش مصر، اتجهت إلى سوريا ، للاستعانة بجيش يعينها على الاحتفاظ بحقها. وهناك لقيت (يوليوس قيصر) الذي فُتن بجمالها، فساعدها على تثبيت عرشها، وعندما قتل (يوليوس قيصر)، انضمت الى الجانب الذي يتزعمه (انطونيو)، وكانت قد أبطات في الانضمام اليه، فغاظه ذلك، وصمم على عقابها، لكنه ما ان وقع بصره عليها، حتى نسي العقاب والتأديب، بل انصرف الى حبها والغرام بها (٣) . ثم وقع هذا الحب نحساً عليه فقد ملك عليه احساسه وعقله وشعوره بشكل مطلق، فانشغل بذلك عن تثبيت مُلكه، تدعيم سلطته. ورغم ان (انطونيو) تزوج (اكتافيا) اخت القيصر، إرضاءً له، وقطعاً لكلام الوشاة المنقول عن حبه (لكليوباترا)، فانه لم يحتمل هذا الزواج ، فارسلها الى اخيها، ثم تتعقد الامور بين القيصر و(انطونيو)، الحرب ضرورةً، تبدأ بينهما في البحر، ولم

* قسم اللغة العربية – كلية التربية للبنات – جامعة بغداد.

يكن اسطول (انطونيو) قادراً على مواجهة اساطيل (اكتافيوس) قيصر روما، لكنه يجازف ويصر على الحرب، لأن (كليوباترا) هي التي رأت هذا الرأي، رغم نصح المخلصين له في أن يترك هذه المعركة البحرية، فتكون الهزيمة محتومة، وعندما أحسّت (كليوباترا) بالهزيمة، انسحبت من المعركة، فيلحقها (انطونيو)(٤).

جناية المؤرخين

لم تجد (كليوباترا) انصافاً من المؤرخين ، لأن اغلب اعتمادهم كان على الرواة ، وهم يروون الاحداث على الاغلب اجتهاداً ، وكثيراً ما يروونها كما يحلو لهم أن تكون ، لا كما كانت حقيقة. ولقد القى المؤرخون على عاتق (كليوباترا) اخطاء (انطونيو) كلها، فتخاذله في القتال، وضعفه عن مواجهة الاعداء يرده المؤرخون الى تلك المرأة الساحرة التي انزلته من مجده الى الحضيض، وحمّلوها مسؤولية فراره من الموقعة البحرية والبرية، وهروبه من روما، وتخليه عن الحكم وهجره زوجته الاولى (فلوفيا)، وزوجته الثانية (اكتافيا)(٥) .

وحقيقة الامر فان شخصية (انطونيو) كانت هي مصدر بلائه، ولعله نفسه كان مصدراً للنهاية المأساوية التي آلت اليها (كليوباترا). ويبدو ان (انطونيو) كان يعاني ازمة نفسية، ترسبت في اعماقه، ووجهت سلوكه وتصرفاته، مما يجعلنا نقف مع من يريد أن يرفع الحيف عن (كليوباترا) في كثير من المسائل التي اتهمها بها المؤرخون، ثم الادباء من بعدهم.

ان حوادث هذه القصة حدثت في فترة حاسمة من فترات التاريخ ، كان مصدر العالم متوقفاً عليها، وذلك الصراع الذي نشأ بين تلك الاطراف، لو ان طرفاً انتصر لساد العالم ، فكأن الصراع كان دائراً بين الغرب والشرق (٦) .

وهناك تفاصيل كثيرة اخرى عن اللقاء الاول بين (كليوباترا) و(انطونيو) إذ بدأ هذا اللقاء حقيقة في آسيا الصغرى (٧) .

في الغرب

كان موضوع (كليوباترا) من الموضوعات التي تناولتها اقلام كتّاب المسرح منذ عهد النهضة الاوربية حتى القرن العشرين، إذ لم يكن حظ المسرح اقل من حظه في ميدان القصة.

لعبت (كليوباترا) دوراً كبيراً بجمالها وشخصيتها في الصراع الكبير الذي دار، إذ أوقع هذا الجمال الأخاذ، وتلك الشخصية المهيمنة القائد الروماني أسيراً لحبها، ورغم ان الحب عاطفة فردية هينة، لكنها تمخضت في شخصية (كليوباترا) عن نتائج خطيرة، وطنية وعالمية، فتلك الشخصية تهيأت بمعانيها العاطفية، ونتائج اعمالها التاريخية للدخول الى الآداب العالمية من أوسع الابواب، إذ كانت تمثل القوة وسحر الاغراء، والكبرياء وحب السيطرة، والاعتداد بالنفس (٨) .

وعلى صعيد الاعمال العالمية الغربية أغنت شخصية (كليوباترا) المسرح بكثير من الروايات والمسرحيات: منها اثنتان باللغة اللاتينية، وخمس عشرة مسرحية فرنسية، وست مسرحيات انكليزية، واربع على الاقل ايطالية (٩).

واول مسرحية فرنسية في عصر النهضة كان موضوعها (كليوباترا) للشاعر (جودل) (١٥٣٢-١٥٧٣) بعنوان (كليوباترا الأسيرة). ثم ألف (صموئيل دانييل) الانكليزي مسرحية (كليوباترا) (١٥٩٤).

وعندما تناولها (شكسبير) في مسرحيته (انطونيو وكليوباترا)، صارت الشخصية، عالمية في الأدب، فتناولها (جون درايدن) في مأساته (كل شيء في سبيل الحب) (١٦٧٨) . ومن اهم الادباء بعد (شكسبير) الذي تناول هذه الشخصية (برناردشو) في ملهاته (القيصر وكليوباترا) وقد مثلت عام (١٨٩٩) ثم نشرت عام (١٩١٢). وغير هؤلاء كتب (اميل لودفيج) روايته (بنت النيل) وكان متأثرا بما كتبه المؤرخ (بلوتارك) غير انه تجنّى كثيراً على الملكة

المصرية، ونعتها بأسوأ النعوت (١٠). والحق فان معظم الادباء اعتمدوا على تاريخ (بلوتارك) او (بلوتارخ) .

هذه الاستعانة على ترجمات هذا المؤرخ جعلت الادباء الغربيين بشكل عام يتفقون على مسائل ومواقف موحدة من (كليوباترا). فهم يتفقون على تصويرها بأنا المرأة اللعوب، التي تستخدم انوثتها وجمالها للسيطرة على قلوب رجال روما . ويرون ان هذه السيدة تسعى وراء اللذات والشهوات. ((وانتصرت على القواد الرومان بالاغراء لا بالذكاء ، بالخديعة لا بالجهد، بالمكر والحيلة، لا الحرب والصراع (١١). وفي الوقت الذي عدّوا فيه (كليوباترا) رمزاً للعقلية الشرقية ، تبغي لذة العيش ومتاعه، جعلوا (اكتافيوس) رمزاً للعقلية الغربية ، بقوته واستقامته في السعي الى غايته وطموحه بالجد والمثابرة)). اما رأيهم في (انطونيو) فكان مقسوما مابين الاتجاهين : ((ففيه قوة وفيه ضعف ، وفيه تردد بين الشرق موطن هواه، وبين الغرب منشئه ومنبته،)) (١٢) . غير أن معظم ادباء الغرب حرصوا أن يظهروا ان ما في (انطونيو) من صفات الضعيف فمرجعها الشرق ، فأضحى مثار سخط رجال روما وجندها، ومصدر قوته مستمد من وطنه الحقيقي .

وهذا يفسر لنا ان معظم المسرحيات الغربية التي تناولت (كليوباترا) ، يتوافر على وحدة الزمن، ذلك انها تبدأ من موقعة (اكتيوم) بمدة تسمح (لكليوباترا) الوصول الى مصر بعد فرارها من ميدان المعركة باسطولها . ورغم اتفاقهم على تحديد الزمن ، فانهم يتقاطعون في جزئيات الاحداث .

وسنقصر الكلام على ثلاثة ادباء كتبوا عن هذا الموضوع : (شكسبير) ، (درايدن) و (برناردشو) .

شكسبير

اعتمد (شكسبير) في مسرحيته (انطونيو وكليوباترا) على الترجمة المفصلة التي كتبها المؤرخ (بلوتارك) (١٣) .

وتبدأ احداث مسرحيته في قصر ملكة مصر (كليوباترا) بالاسكندرية، فبينما يكون (انطونيو)غارقاً بالعيش الرغيد والابهة والفخامة مع معشوقته التي أسرت قلبه ، تصله أنباء ليست سارّة ، تبلغه عن اعلان (اكتافيوس) الحرب، مما يسبب له بعداً عن الملكة الساحرة ، التي اصبح خاضعاً لسلطانها . فلم يكن بمقدوره سوى ان يغادر الى روما على عجل . بالرغم من ان (كليوباترا) قد استخدمت معه وسائل ومغريات عديدة لتستبقيه الى جانبها ، ولكن دون جدوى .

يصف (شكسبير) شعور (قيصر) تجاه (انطونيو) شريكه في حكم الامبراطورية، باهماله واجبات الحكم، بسبب انهماكه في اللذائذ والملهيات في الاسكندرية .

ثم في فصل آخر، يلتقي كلاهما، ويشتد الجدل بينهما، ينتهي الامر بصلحٍ، يباركه زواج (انطونيو) من اخت القيصر.

وهذا كله غضب (كليوباترا) يحدث هذا كله في الفصل الثاني .

اما في الفصل الثالث : يبدو أن هذه الهدنة بين الاصهار لم تدم طويلاً، إذ ظهر أنّ في نفس كل واحدٍ منهم شيئاً من الآخر. ثم يعود (انطونيو) ادراجه الى الاسكندرية، الى احضان (كليوباترا)، فيشتد حنق القيصر عليه، بسبب عودته الى سيرته الاولى، ومنحه (كليوباترا) مملكة مصر. ثم تنشب الحرب بينهما، يتقابل الاسطولان عند (اكتيوم)، لكن الاسطول المصري المعقود لواؤه (لكليوباترا) يتقهقر ويفر من المعركة، فينتصر القيصر، ويطلب (انطونيو) و (كليوباترا) منه الصلح، يتقبل قيصر ذلك، بشرط أن تتخلى (كليوباترا) عن (انطونيو)، غير انها تأبى ذلك، فيحاول (انطونيو) أن يجرّب الحرب مرةً اخرى. يتقدم (القيصر) بجيشه الى الاسكندرية، فينتصر (انطونيو) عند اول موقعة. وفي الليل يخلو (بكليوباترا)، تاركاً مهامه العسكرية الجسيمة، فينتصر (قيصر) في ثاني يوم معركة بحرية انتصاراً مبيناً.

تختبيء (كليوباترا)، وتأمر احد حراسها ان يبلغ (انطونيو) بأنها قتلت نفسها ، فيغمد (انطونيو) السيف بجسمه عندما يسمع بهذا النبأ. وبينما هو في لحظاته الاخيرة ، يأتيه من يكذب خبر انتحارها. ثم تأمر (كليوباترا) بحمل (انطونيو) الى مخدعها حيث يلفظ انفاسه الاخيرة .

وفي الفصل الخامس : تفاجأ (كليوباترا) بدخول (القيصر) عليها ، فيعرض ان ياخذها معه الى روما ، لكنها لاتنخدع بما يمنّيها بأن تقع أسيرة الذل والمهانة ، فتعقد العزم على ان تلحق بحبيبها ، فتدع أفعى تلدغها . وتختم المسرحية بتشييع جنازة (كليوباترا) ودفنها مع (انطونيو) في قبر واحد .

توصل (شكسبير) بخبرته الطويلة الى مفهوم جديد للمأساة في مسرحياته التاريخية ، وهو مفهوم بعيد عن الاعتبارات النظرية. فالبطل يكون رجلاً باستطاعته التأثير على مقدرات شعب بأكمله، كما انه يتصف بصفات عظيمة ومواهب فائقة لكنه مع هذا لا يخلو من ضعف او عيب يجعله غير قادر على مواجهة المواقف الصعبة (١٤) .

ولا يخفى ان (شكسبير) في مسرحيته (انطونيو وكليوباترا) قد جسّد (انطونيو) على افضل ما كان عليه، ورغم انه يتفهم حب (انطونيو) العظيم (لكليوباترا)، فانه التزم الحقائق التاريخية في هذه المسرحية بدقة متناهية، فقام بنعت (كليوباترا) أنها امرأة لعوب مستبدة، هلوكٌ غويّة، في وقت لايقدم (انطونيو) الاّ عاشقاً اعمى، مكبّلاً بأغلال عشقه، لا يسمع لوم اللائمين او نصح الاصحاب (١٥) .

لقد قدّم (شكسبير) في مسرحيته اوصافاً دقيقة عن (انطونيو) و (كليوباترا) وحدد شخصيتيهما تمام التحديد، من ذلك انه صوّر (انطونيو) انه ((مروحة بيد الملكة تحركها بيدها . وهو يعترف بلسانه حينما يفيق الى نفسه بأنه مقيد بقيود ثقيلة من حب هذه المرأة المصرية وسحرها ، الاّانه عاجز عن تحطيم هذا القيد)) (١٦) .

ورغم الكلام الذي قاله عن (كليوباترا) يعود الى انّ لها صورة اخرى غير الجمال ، تلك هي صورة الكبرياء والكرامة ، إذ فضلت الانتحار على وقوعها أسيرة ذليلة . ومن شدة اهتمام (شكسبير) بهذا الموضوع كان قد ألف قبل هذا مسرحية بعنوان (يوليوس قيصر) عام ١٥٩٩ ، طبعت عام ١٦٢٣ .

درايدن

من أشهر من تناولوا شخصيتَي (كليوباترا) و (انطونيو)، (جون درايدن) في (كل شيء من أجل الحب) ١٦٧٨. وكان (درايدن) يدير الصراع في مسرحيته بين قضيتين مهمتين : هما الواجب والحب . فقد عمّق في ذلك هذا الصراع عند (كليوباترا) و (انطونيو) بين حب احدهما للآخر ، وبين واجبهما تجاه بلديهما وشعبيهما . اي بين هذين العاشقين وبين واجبهما القومي .

يُجري (درايدن) صراعه المحدود في الزمان والمكان ، ثم ينهي مسرحيته وقد انتحر البطل ، وتلته البطلة (١٧) .

وبهذا انتصرت قضية الحب على قضية الواجب . وعلى هذا الاساس أخضع (درايدن) سلوك البطلين لمقتضيات النضال بين الحب والواجب .

و(انطونيو) عند (درايدن) بطل رومانسي صغير الشأن ، خائر العزيمة ، يتخذ القرار بالمضي الى الحرب ، وحين يرى (كليوباترا) يذوب قراره من فوره ، فيقع ضحية للغرام . اما (كليوباترا) عنده ، فهي الملكة العظيمة الخالدة التي يصورها التاريخ والادب ، انما هي عاشقة مفتونة ، كل همها أن تبقي الى جوارها الرجل الذي اختارته ، ولتذهب الدنيا إلى الجحيم (١٨).

لقد نهج (درايدن) في عمله هذا منهجاً ذا طابع كلاسيكي . وهو ليس المؤلف الغربي الوحيد الذي نهج هذا النهج ، فقد سبقه آخرون ، وتلاه آخرون .

برناردشو

وآخر من نذكرهم من أدباء الغرب : (جورج برناردشو) وهوشخصية مهمة في الأدب المسرحي الانكليزي اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين .

يمتاز (برناردشو) بأصالة الفكرة، ومتانة الاسلوب، وقد تعلم كيف يطور المسرح ليساير مسرحيات عصره، فاستخدم الالفاظ البهيجة، لا لأجل التسلية حسب، وانما لعمق دراسة المشكلات المعروفة ، الاجتماعية والاخلاقية والسياسية والدينية .

وقد انصرف (شو) في مرحلة تالية الى الشخصيات التاريخية ، كما في مسرحية (قيصر وكليوباترا) عام ١٨٩٨. وقد بذل جهداً كبيراً في تصويره الرومانتيكي لشخصية (كليوباترا) الناضجة، وحاول كذلك بابتكاره عقدة متكاملة ان يعطي صورة مهيبة مؤثرة للقيصر. وفي هذه الصورة يبدو ان (شو) اتجه نحو معالجة المشكلات الفلسفية ، يتجلى بالمفهوم الديناميكي للتطور ، وهو أن الارادة البشرية ليست عاجزة عن تقرير مصير الانسان، فلو اتصف هذا الانسان بالحيوية واليقظة ،فان قوة الحياة الدافعة توجهه نحو صراع مضطرب مجهول المصير (١٩) .وهو يشير بذلك الى شخصية (انطونيو).

يصور (شو) حب (كليوباترا) في صغرها (يوليوس قيصر) ، وهو الحب الذي انتصرت به على أخيها ، وبمناصرة القيصر لها ، استولت على عرش مصر .

ورغم أن تاريخ (كليوباترا) طويل حافل بالأحداث ، فقد ركز (شو) على فترة قصيرة من حياتها ، تناولت علاقتها (بيوليوس قيصر) ، ويصور فيها (كليوباترا) طفلة صغيرة . ويهمل المؤلف جوانب تاريخية كثيرة عنهما ، من ذلك : ((ما يرويه التاريخ من غرام (يوليوس قيصر) (بكليوباترا) ، بل وانجابه منها ولده (قيصرون) ، وثورة الرومانيين ضده بسبب هذا الغرام العابث (٢٠) .

ويحاول (شو) جاهداً أن يقلل شأن (كليوباترا) ، ونعتها بالفتاة الطائشة الرعناء، وكذا الحال في وصف (قيصر) ، فان كل ما لديه هوقوة من الدهاء والحكمة (٢١).

عند العرب

كان طبيعياً ان تظهر الاعمال الأدبية – المسرحية منها – في الغرب قبل ظهورها عند العرب ،لأسباب كثيرة منها : النهضة العلمية في الغرب، ومنها : أن الأمم الغربية – الاوربية- ورثت التراثين اليوناني والروماني بشكل شرعي، وبدأت عندهم أصلاً نظرية (المحاكاة) التي بدأها (أرسطو)، وهي كانت عندهم محاكاة رشيدة ، خصوصاً إبّان الكلاسيكية لتي اهتمت بالمسرح بشكل خاص، وأسست له قواعد وأسساً متينة. ويجدر هنا أن نقول إن الأدب المسرحي نشأ عند اليونان شعراً، ثم انتقل هذا التقليد الأدبي الى الكلاسيكيين وبعض الرومانتيكيين. اما المسرح عند العرب، فليست له بدايات قديمة او موروثات، لخلو الادب العربي من هذا الفن. حتى إذا حلّ القرن التاسع عشر، بدأت ترجمات المسرحيات الى العربية بداية بسيطة ، ثم صار المسرح فناً معروفاً في بعض الاقطار العربية ، اعتماداً على الترجمة او التأليف ، سواءٌ أكان إقتباساً ام تأثراً، أي أن الترجمة سبقت التأليف .

وفي الاحوال كلها ، ظلت المسرحية الشعرية بالذات منذ أواسط القرن التاسع عشر تخضع للاقتباس والترجمة في مجملها. حتى مجيء شاعر مصر (أحمد شوقي) .

أحمد شوقي

أرسى (أحمد شوقي) لفن المسرحية الشعرية أسساً متينة، وبذلك فإن ميلاد المسرحية الشعرية كان على يده، متزامناً مع المسرحيات النثرية التي ظهرت في مصر او في بلدان عربية اخرى كسوريا ولبنان. وقبل دخولنا الى عمل (شوقي) نبدي استغرابنا بأن هذا الشاعر هو الاديب العربي الوحيد الذي تصدّى لموضوع (كليوباترا) ، في عمل أدبي رصين ، مكتمل فنياً وموضوعياً.

ونعتقد أن (شوقي) قد قطع الطريق على الادباء العرب الآخرين، بأنه تصدّى للدفاع عن الملكة المصرية ، فلم يترك شيئاً لغيره، رغم ايماننا أن الابداع الادبي الفني ليست له نهاية، ولا يقطع أديب طرقاً على آخر .

على أننا نفيد من رأي الدكتور (محمد غنيمي هلال) وهو يتحدث عن انواع التأثيرات في الأدب المقارن، فهناك نوع من التأثير العكسي، كأن يقاوم الكاتب أثر كاتب آخر في أمة اخرى ، ينتج عن هذه المقاومة أثرها في تأليفه. ((ولنأخذ لذلك مثلاً أحمد شوقي في مسرحية (كليوباترة) فقد تأثر في فكرة دفاعه عن (كليوباترة) بالمسرحيات الاوربية))(٢٢) .

كتب (احمد شوقي) مسرحيته (مصرع كليوباترا) عام ١٩٢٧ . وقد كثر الجدل عند الدارسين العرب في مسألة اخذ (شوقي) من الغرب او تأثره بأدبائهم ، غير أن (محمد مندور) يحسم هذا الموضوع بقوله: ((إن شوقي لم يتأثر بالأدب التمثيلي الغربي فحسب ، بل تأثر ايضاً بالشعر الغنائي وبخاصة الرومانتيكي ، فنقل إلى العربية قصيدة البحيرة الشهيرة للامارتين ، كما تأثر أيضاً بحكايات (لافونتين) على لسان الحيوانات وحاكاها))(٢٣) .

أما اطلاع (شوقي) على مسرحية (شكسبير) (انطونيو وكليوباترا) ، فمن المرجح انه اطلع عليها في ترجمة فرنسية ، لأن الترجمة العربية التي قام بها (محمد عوض ابراهيم) ظهرت بعد وفاة شوقي (٢٤) .

كانت رحلة (شوقي) إلى فرنسا هي التي جعلته يتعرف إلى مظاهر التعبير الأخرى ، غير الشعر الغنائي ، فجازف في أعمال مسرحية منذ وقت مبكر (١٨٩٣) .

إننا نرجح أن الأعمال الغربية التي سبقت (شوقي) ، قد أفاد منها الشاعر مجتمعةً، وأقتبس منها وتأثر بها، يضاف إلى ذلك كله ، اعتماده على تاريخ مصر وتاريخ العرب، مازجاً بها عواطفه الوطنية والإنسانية ، لتحقق أعماله المشاركة الفنية ، وصولاً إلى النجاح المسرحي الفني ، لهذا لم يتقيد بتيار معين ، ولا بمذهب واحد ، بل جمع بين مذاهب الأدب المختلفة . وكان المعينان الغربي والشرقي محور أعماله المسرحية بخاصة .

وإذا عدنا إلى (مصرع كليوباترا) فان (شوقي) أراد أن يشيد بمصر ، وأن يرد لها اعتبارها ، وأن يبرز مجدها وصدق وطنيتها . وإن لم يختص بشعب مصر ، وإنما اختص ذلك بـ (كليوباترا) ، لا بوصفها ملكة ، بل بوصفها مصرية شرقية ، فقد قدمها في صورة المخلصة لوطنه ، تؤثر ذلك الوطن على حبيبها ، وتحيا وتموت لمجد مصر ، وتأبى الذل والهوان . (٢٥)

لهذا اختار (شوقي) لمسرحيته أن تبدأ بعد موقعة (اكتيوم)، قبيل هزيمة (انطونيو) في الإسكندرية. ولعله ساير (شكسبير) في وحدة الزمن هذه .

رأى (شوقي) أن من واجبه الدفاع عن (كليوباترا) التي لم ينصفها أدباء الغرب.

((وهو رغم هذا لا ينزّهها عن الأخطاء ولا يرفعها إلى مرتبة الأبطال والقديسين، لكنه يرى أن تاريخها لم يكتب على وجهه الصحيح)) (٢٦) .

ويختلف (شوقي) في تفسيراته لبعض الحقائق التاريخية التي لا ينكرها ، عما فسره الغربيون. فحين يتهمون (كليوباترا) بأنها فرت من موقعة (أكتيوم) البحرية جبناً وغدراً ، يرى (شوقي) أن قرارها لسياسة عليا:

كنتُ في مركبي وبين جنودي أزنُ الحرب والأمور بفكري
وإذا فرق الرعاة اختلافٌ علّموا هارب الدّئاب التجرّي
فتأملتُ حالتي ملياً وتدبّرت أمر صحوي وسكري(٢٧)

وهذا المقطع بيت القصيد في أن (شوقي يدافع عن وطنيتها ، ويبين نكرانها ذاتها ، ثم في المقطع التالي أنها تجاهلت ذلك الهوى العارم ، فغدرته، ولم تنصره، بيد أنها ابنة مصر وملكتها:

فنسيت الهوى ونصرة انطـ يوس حتى غدرته شرّ غدرِ (٢٨)
علم الله قد خذلت حبيبي وابا حبيبتي وعوني وذخري
والذي ضيّع العروش وضحّى في سبيلي بألف قطر وقطرِ
موقف يعجب العلا كنت فيه بنت مصرٍ وكنت ملكة مصرِ (٢٩)

فلعل (شوقي) قدم تفسيراً جديراً لانسحاب (كليوباترا) من معركة (اكتيوم) ، وأنها مثال للتضحية الوطنية، وأرادت أن تستقل بمملكة مصر عن روما والقائد الروماني ، وانسحابها من اجل أن تجعل القائدين الرومانيين ضعيفين ، فيمكن القضاء عليهما . أو تشغل روما عن السيطرة على مصر، فيتحقق الاستقلال .

ومن المسائل التي اجتهد (شوقي) في تفسيره للتاريخ، او قل في تأويله : أن (كليوباترا) أرسلت الى (انطونيو) بعد الهزيمة تخبره كذباً بانتحارها ، فينتحر (انطونيو) . لكن (شوقي) يبرّيء ساحة (كليوباترا) من هذا ، ويلقي بتبعة الخبر الكاذب على (اولميوس) ، الطبيب الروماني في بلاط (كليوباترا) ، الذي يسوق النعي إلى (انطونيو) :

انطونيو ماذا تقول ؟
اولميوس كليوباترا انتحرت بطعنة الخنجر في صدر الضحى
انطونيو:
ياللسماء ! انتحرت أينَ أينْ ولِمْ ؟ وكيف كان ذاك ؟ ومتى
اولميوس!
مررت لاقصر ضحى اليوم فلم أجد له نَظماً ولاحسناً يـُرى
بدا لعينيّ خلاءً موحشاً غير عويل هنا وهنا
انطونيو : انتحرت ياللخبر ويالقسوة القدر
إن الأمور انتقلت من خطر إلى خطر
ما غدرت وإنما أنا الذي بها غدر
وافجلتا من قولهم انتحرتْ وما انتحر (٣٠)

ويبلغ دفاع (شوقي) أنه ينسى قول (كليوباترا) على لسانها : (حتى غدرته شر غدر)، ليجعل (انطونيو) يعترف أنه هو الذي غدرها ، فيأتي الدفاع على لسان (انطونيو) (ما غدرت وإنما أنا الذي بها غدر) .

ولعل بعض الباحثين يعدون هذه المسألة وغيرها مما وقع فيها (شوقي) من تناقضات، غير إننا نرى أن (انطونيو) قد دافع حقيقةً عن أخلاص (كليوباترا)، وعن تبرئة ساحتها مما هوّله رجال روما والقادة والساسة، فلا تناقض هنا في قول (شوقي) .

والخلاصة في موضوع عدم التزام (شوقي) بحذافير الروايات التاريخية، وكذلك في متابعة الأعمال الغربية التي أفاد منها، نقول: إن (شوقي) أديب وليس مؤرخاً، ومروقه من بعض صفحات التاريخ لصالح عمله الأدبي لايعيبه، وكذا الحال في مسألة التأثر بمن سبقوه من الغربيين أو غيرهم، فليس من الضرورة أن يقع حافره على حافرهم، وما هذا التأثر الاّ إفادة ايجابية، يغني فيها الأديب موضوعه ، ولعمري فان هذا من صميم الأدب المقارن.

ولعلّ شوقي أراد أن ينبّه أبناء مصر عن واقعهم السياسي الذي كان فيه احتلالٌ ايضاً ، يمكن الخلاص منه. إذ عرض في ثنايا مسرحيته أن مصر كانت تحت حكم (كليوباترا) الملكة المصرية، وعندما سلمت قلبها إلى (انطونيو) ، اختار حرباً خسر فيها، فعادت مصر محتلةً مرة أخرى .

الاختلاف – التشابه

وعلى ما ذكرناه، فالأخذ والتأثر الأدبيان تشابهٌ واختلاف . ولانعدم إذا قلنا : إن (شوقي) قد أبدع في كليهما، وقدم عملاً متميزاً ، مختلفاً ومتشابهاً ، يكفي أنه في جنس أدبي نضج على يده، وإن ابتدأ فنه المسرحي أول الأمر اقتباساً ، لكنه سار نحو الابتكار والتجديد .

وفي وحدة الزمان تبدأ مسرحية (شوقي) من هزيمة (اكتيوم)، وهذا هو آخر الفصل الثالث في مسرحية (شكسبير)، إذ تبدأ هذه قبل (اكتيوم) بسنوات، ولمّا يتمكن الحب العارم من قلبي (كليوباترا) و (انطونيو)، ولم تكن العلاقة أكثر من نشوة أو شهوة جسدية. ولعلها كانت رغبة أو نزوة توطدت عراها فيما بعد .

وحينما يلتزم (شكسبير) خطأً رئيساً عندما يركز على مأساة قائد شجاع ، تستبد به امرأة لعوب، فتحطمه بغوايتها وفتنتها، وتقطع كل علاقة بينه وبين وطنه، فهو يلتزم بهذا التفسير فتظهر مأساة الانسان ((حين يقع في أسر الفتنة الجسدية، فلا يستطيع منها فكاكا))(٣١)، في هذا الحين، يبتعد (شوقي) قدر ما استطاع عن هذه التهمة التاريخية ، ولم يثبت شيئاً من هذا على (كليوباترا) .

وهناك اختلاف جوهري آخر بين العملين، يرجع إلى المنهج الفني والأخلاق الإنسانية، فـ (شكسبير) عندما يحلل المشاعر الإنسانية، يستند إلى الوقائع التاريخية التي تنفعه، في حين يعمد (شوقي) إلى وصف وتحليل الشخصيات الروائية، ليحقق معها المشاركة الوجدانية .

ولعل ما يلاحظ على مسرحية (شوقي) بعض الضعف في النواحي الفنية، يوضح (محمد غنيمي هلال) ذلك انه قدم (كليوباترا) بصورة متناقضة لا إقناع فيها ((زائفة الشخصية، تتضاد في أقوالها، في إخلاصها للوطن مع أفعالها وسياسته الطائشة))(٣٢) . ويمكن ان يكون بعض الضعف في عمل (شوقي) أنه أجرى الصراع بين العوامل النفسية والأخلاق. ولو عمّق ذلك بين المشاعر الإنسانية والأخلاق الاجتماعية ، جاء عمله أكثر تأثيراً في المتلقي .

وفي رأينا المتواضع، (لشوقي) الحق فيما قدمه، فهو انبرى أصلاً للدفاع عن ظلم التاريخ، متأثراً تأثراً عكسياً – كما أسلفنا - ، فخالف الكثير مما جاء به الغربيون، بيد أنه ساير بعض الحقائق التاريخية، التي لم يجد منها مناصاً ولا خلاصاً في إظهارها .

ويختلف عمل (شوقي) عن الأعمال الغربية من الناحية الفنية أنه لم يلتزم مذهباً أدبياً محدداً ، ولم يتقيّد بتيار خالص، بل جاء عمله خليطاً من مذاهب الأدب المختلفة، كما انه لم يتعمق بدراسة فلسفة الأدب. ولم يلتزم بقاعدة فصل الأنواع، التي تستوجب أن تكون المأساة سلسلة من أحداث الأسى، لا يتخللها حدث مضحك .

وهناك اختلاف آخر، جعله بعض النقاد مأخذاً على (شوقي) . ففي العنصر الغنائي أقحم على الدراما هذا النوع من المسرحيات الشعرية، وهذا ينطبق على مسرحياته الشعرية الأخرى . بيدَ أن (محمد مندور) يستعذب هذه الغنائية، ولا يعدها مأخذاً عليه (٣٣). وها نحن مع (محمد مندور)، إذ إنه من الطبيعي أن يبقى شاعر مثل (شوقي) متأثراً بطابع الشعر الذي طبع عليه طوال حياته، ونقصد بذلك شعر الإنشاد والغناء ، وهذا من مقومات بدايات التجديد في الشعر الحديث.

وإذا اردنا أن نتحدث عن الأوزان والقوافي (٣٤) ، ومخالفته للأعمال الغربية ، فانه من المعروف أن الشعر الغربي لم يكن يهتم بالقوافي ، فألف (شكسبير) مسرحياته في شعر مرسل، وفكر (شوقي) أن يخترع وزناً أو اوزاناً لشعره التمثيلي، وربما استطاع أن يطلقه قليلاً من قيد القوافي ، لكنه استمر بالصورة الموسيقية للشعر الغنائي (الخليلي)، ((وهي الصورة التي ألفها الجمهور للشعر العربي))(٣٥) .وحقاً ، كان لهذه الوفرة من البحور الشعرية أثر مميز لمسرحه بشكل عام، والمسرحية التي نبحثها بشكل خاص. وليس التقيد بالبحور والأوزان معيبةً ، فقد التزم عبقرياً المسرحية الفرنسية (راسين) و(كورني) بالبحور والأوزان (٣٦) . وليس سهلاً أن نطالب الشاعر بوزن واحد وبقافية واحدة في مسرحية طويلة، يختلف موضوعها عن غنائية الشعر أصلاً . ونرى أن (شوقي) قد أجاد حين جعل للسان كل شخصية

وزناً خاصاً به، فكأنه قصد بذلك أن كل وزن من هذه الأوزان يلاءم تلك الشخصية. وكذا الحال في انتقاله من قافية إلى أخرى .

ولعل من المفيد أن أذكر أن الكتب التي ألفت عن ريادة الشعر الحر قد قصدت الكلام عن الرواد العراقيين، (بدر شاكر السياب) و(نازك الملائكة) و (عبد الوهاب البياتي) و (بلند الحيدري)، وكأنهم وحدهم لهم قصب السبق في هذا الفن ، في وقت لا أجد حرجاً إذا قلت إن هذه المسرحية لـ (شوقي) يمكن أن تكون تنبيهاً أو تمهيداً لما جاء به التالون من الشعراء في الوطن العربي اعني ما أسموه بـ (الشعر الحر) . فما فعله (السياب) مثلاً بادئ الأمر انه أطلق القوافي ، ثم زاوج بين الأوزان المعروفة ، ولعمري لم يتجاوز (شوقي) هذا .

من المفيد أن نقول إن (شوقي) قد تابع (شكسبير) موافقةً تامةً في انه ايضاً تتبع قصة ثانوية (هابي وهيلانة) ، إذ جعلها ذيلاً لمسرحيته التي لم يرد لها ان تنتهي نهاية مأساوية ، وهذا نوع من الحيل المسرحية التي اشتهرت عند (شكسبير) بما يسمى بالترويح (٣٧) .

الهوامش

(١) دراسات أدبية مقارنة صـ ٩٩.

(٢) النقد التطبيقي والموازنات صـ ٩١ وهناك روايات أخرى مشوقة في موتها ، منها أنها قد أمرت فلاحاً بأن يضع أفعى في سلة تحت أوراق التين ، فاحتال الفلاح على الحراس ، وقد أرادت أن تلدغها الافعى دون أن تراها (كليوباترا) ، غير أنها رأتها ، فقالت : (ها هي ذي إذن) وقدمت للافعى ذراعاً عارياً لتلدغه . ويزعم آخرون أنها كانت تحتفظ بالأفعى عندها في وعاء ، وهي التي قد هاجتها ، فهجمت عليها . للمزيد : دراسات أدبية مقارنة صـ ٩٧ .

(٣) الأدب المقارن ، طه ندا ، صـ ١٧٠-١٨٠ .

(٤) نفسه صـ ١٨١ . وينظر دراسات ادبية مقارنة صـ ٨٤ وما بعدها .

(٥) الأدب المقارن ، طه ندا ، صـ ١٨٢.

(٦) دراسات أدبية مقارنة صـ ٨٣.

(٧) للمزيد من التفاصيل ينظر المصدر السابق صـ ٨٤.

(٨) الأدب المقارن ، محمد غنيمي هلال صـ٣١١.

(٩) دراسات أدبية مقارنة صـ ١٠١.

(١٠) للمزيد ينظر الأدب المقارن ، محمد غنيمي هلال صـ٣١١.

(١١) الآداب المقارنة صـ ٩٧ .

(١٢) دراسات أدبية مقارنة صـ ٨٣.

(١٣) ترجمها إلى العربية محمد عوض إبراهيم .

(١٤) تاريخ الأدب المسرحي الانكليزي صـ٧١.

(١٥) كليوباترا بين شكسبير وشوقي ، صلاح عبد الصبور ، مجلة الهلال العدد ١١ لسنة ١٩٧٦ ، ١٩٦٨ صـ ١٢٩.

(١٦) الأدب المقارن ، طه ندا صـ١٨٢.

(١٧) نظرة في مسرح شوقي ، علي الراعي ، مجلة الهلال العدد ١ سنة ١٩٦٨ صـ١١٦.

(١٨) نفسه صـ١١٦ .

(١٩) تاريخ الأدب المسرحي الانكليزي صـ١٧٩.

(٢٠) مسرحيات شوقي صـ٧٨ .

(٢١) دراسات في النقد المسرحي صـ١٥٧.

(٢٢) دور الأدب في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر صـ٢٣ ومن الذين أنصفوا (كليوباترا) على أنها ملكة صالحة ومواطنة مصرية تسعى إلى الخير (عبد العاطي جلال) في مسرحيته (كليوباترا الجديدة) إذ يقدمها أن تسعى لنهضة مصر وخلاصها من الاحتلال الروماني ، وتعمل لتصبح شريكة إمبراطور روما ، فتنجب منه ولداً ليكون

حاكم المستقبل ،متخذةً من فتنتها سبيلاً إلى ذلك ، واستطاع هذا الكاتب أن يدفع عنها التهم والشبهات والتشويه

- ليست هناك أعمال عربية في هذا الموضوع ، يكفي ان نذكر :
- كليوباترا الجديدة ، عبد العاطي جلال .
- المروءة المقنعة ، محمود غنيم ، وله ايضاً (غرام يزيد) .
- (ولادة) ، علي عبد العظيم .

(٢٣) مسرحيات شوقي صـ ١٧.
(٢٤) نفسه صـ ٧٣.
(٢٥) الأدب المقارن ، محمد غنيمي هلال صـ ٣١٢.
(٢٦) الأدب المقارن ، طـه نـدا صـ ١٨٨.
(٢٧) مصرع كليوباترا صـ١٦.
(٢٨) في الأصل المطبوع: فنسيت الهوى ونصرة انطونيو سَ حتى غدرته شر غدر.
(٢٩) مصرع كليوباترا صـ١٦.
(٣٠) نفسه صـ٥٥ ، صـ٥٦ .
(٣١) كليوباترا بين شكسبير وشوقي ، الهلال صـ ١٢٩ .
(٣٢) الأدب المقارن صـ٣٥٠ .
(٣٣) مسرحيات شوقي صـ٥٣.
(٣٤) عند البدء بكتابة هذا البحث ، وقراءتي الأولى لمسرحية (شوقي) ظننت ان معرفتي المتواضعة بالعروض العربي ستمكنني أن آتي بشيء جديدٍ في هذا ، غير أني وجدت أن هناك كتابات متعددة قد سبقتني إلى أفكاري وتحليلاتي ، من هذه المصادر :

- شوقي شاعر العصر الحديث ،شوقي ضيف .
- المسرحية – نشأتها وتاريخها وأصولها ، عمر الدسوقي .
- الجانب العروضي في مسرحية (مصرع كليوباترا) نازك الملائكة ، ضمن كتاب (دراسات في اللغة والنقد).
- شوقي والبحور الخليلية في مسرحه الشعري ، رفيق وناس ، مجلة الحياة الثقافية العدد ٣ ، ١٩٧٩.
- شعر شوقي الغنائي والمسرحي ، طـه وادي.

(٣٥) شوقي شاعر العصر الحديث ، صـ١٨٤.
(٣٦) المسرحية – نشأتها وتاريخها وأصولها ، صـ٤٤.
(٣٧) مسرحيات شوقي ،. صـ٨١.

المصادر

١. الآداب المقارنة ، محمد التونجي ، دار الجيل ، بيروت ١٩٩٥.
٢. الأدب المقارن ، طـه نـدا .
٣. الأدب المقارن ، محمد غنيمي هلال ، ط٣ ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٧.
٤. تاريخ الأدب المسرحي الانكليزي ، بي . آيفور ايفانز ، ترجمة علاء الدين حمودي وعبد المطلب عبد الرحمن ، كطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦١.
٥. دراسات أدبية مقارنة ، محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر ١٩٨٥.
٦. دراسات في النقد المسرحي ، محمد زكي العشماوي ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٠ .
٧. دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب المعاصر ، محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر ١٩٥٦.

٨. شوقي شاعر العصر الحديث ، شوقي ضيف ، ط٣ ، دار المعارف ، مصر ١٩٥٣.
٩. كليوباترا الجديدة ، عبد العاطي جلال ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٠ .
١٠. مجلة الهلال ، العدد ١١ و سنة ١٩٦٨.
١١. مسرحيات شوقي ، محمد مندور ، ط٣، مكتبة نهضة مصر د.ت.
١٢. المسرحية – نشأتها وتاريخها وأصولها ، عمر الدسوقي ، مكتبة الانجلو ، مصر ١٩٥٧.
١٣. مصرع كليوباترا ، احمد شوقي ، مؤسسة فن الطباعة ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، د.ت .
١٤. النقد التطبيقي والموازنات ، محمد الصادق عفيفي.

Cleopatra between the Western and Arabic Literatures
- A study in Comparative Literature-

Dr. Soubhi Nasser Hussain
Arabic Dept. – The College of Education for Women – Baghdad University

Abstract:

Cleopatra was an Egyptian ancient queen, judged Alexandria -with wisdom, mind and power. She related emotionally in very strong love with (Antonio), and then there were an argument in Rome between the (Caesar) and (Antonio). The historical novels says that (Cleopatra) convent (Antonio) to get into a sea war, it seems that his army triumph in the first day, so when the two lovers take their rest , the news of their losing in the war was came. Someone make a trip to (Antonio) by telling him that(Cleopatra) commit suicide so he killed himself and (Cleopatra) came to see him , she was afraid to be arrested from her enemy so she went to the religious man that gave her a snake and the snake bit her and she dead. There was many details about their relationship the historian transferred it with different changes.

Several literati wrote in Cleopatra subject through theatre, story and novel , and they are talking about Cleopatra' beauty which play a big rule in history, and called her as playful woman that invest her beauty to subjugate the leaders.

It has produced plays and novels, 15 in French, 6 English, and 6 Italian besides many dramas. The most important literati that wrote about Cleopatra was (Shakespeare) in (Antonio and Cleopatra), then (John Driden) in (Everything for love) 1678, after them (Bernardshow) in (Caesar and Cleopatra). It is normally that these works appeared in western before Arabian, due to what happened in renaissance, the Arabian were aware on the western work , so the Egyptian poet (Ahmad Shawqi) wrote his play (Cleopatra' Dead) in 1927 , he was impressed technically in western works even he had a different attitude from them, his work is a creativeness work.